

## وضع الأقليات الدينية في إيران: ما يجب أن يعرفه الغرب عن طبيعة النظام الإيراني

مقالة مشتركة كتبها:

البروفيسور اللورد ديفيد ألتون،

عضو مجلس اللوردات وعضو لجنة الدفاع والعلاقات الخارجية في المجلس

والدكتور وائل العجي،

سكرتير رابطة المحافظين الشرق أوسطيين

على الرغم من توقيع إيران على عدة موثائق دولية تختص بضمان الحريات الدينية؛ إلا أن الأقليات الدينية التي تعيش في إيران لا تزال تعاني صنوفاً متعددة من الضغط والتضييق. فمنذ وصول نظام الملالي الحالي إلى السلطة في عام ١٩٧٩م، دأبت الحكومات الإيرانية المتعاقبة على التعامل مع الأقليات الدينية بوصفها تهديداً محتملاً للنظام الثيوقراطي الذي يتبنى تفسيرات متشددة للمذهب الشيعي فيما يخص نظرية الولي الفقيه في الحكم، والعلاقة مع غير الشيعة، وعالمية الدعوة الشيعية وأهدافها.

ففي إيران اليوم، يعاني المسلمون السُّنة، وأتباع الجماعات الصوفية، والبهائيون، والمسيحيون أشكالاً متعددة من الاضطهاد والتضييق تتراوح بين التهديد والترهيب والحرمان من فرص التعليم والعمل، وصولاً إلى السجن والتعذيب والإعدام، مروراً بإغلاق ومصادرة أماكن العبادة أو منع وجودها من الأساس. ناهيك عن شيوع الخطاب المعادي للسامية والمهين للرموز السُّنية، والدعاية التحريضية على المسيحيين والبهائيين والصوفيين. وقد عمل النظام الإيراني على نشر هذا الخطاب الطائفي المتطرف المحرض على العنف، ليس في داخل إيران فحسب؛ بل أيضاً في بلدان أخرى، مثل العراق، وسوريا، ولبنان، واليمن، ونيجيريا، كما لُوحظ هذا الخطاب في أمريكا وبعض الدول الأوروبية، حيث تمتلك إيران شبكة معقدة من الدعاة والتنظيمات والأجهزة الإعلامية المرتبطة بها.

وعلى الرغم من الوعود الكثيرة التي أطلقها الرئيس روحاني عند إعادة انتخابه في ٢٠١٧م، إلا أن سجل إيران فيما يتعلق بحقوق الإنسان في تدهور مستمر. فقد تم اعتقال ثم اختفاء المئات من المعارضين السلميين والصحفيين وناشطي حقوق الإنسان. أما فيما يخص الأقليات الدينية؛ فقد ذكرت المنظمة الدولية لدراسات حقوق الإنسان والحريات الدينية (سي إس دبليو CSW)<sup>(١)</sup>، في تقريرها السنوي الصادر هذا العام، أن هناك ٥٤٥ محتجزاً في السجون الإيرانية حالياً بسبب معتقداتهم الدينية، بينهم ٩٧ من البهائيين، إضافة إلى عدة رجال دين مسيحيين، منهم القس يوسف نادر خاني، والقس فيكتور بيت تمران، والقس متى حاج نجاد. كما ذكرت المنظمة في التقرير نفسه أن إيران تحل في المركز الثاني بعد الصين من حيث عدد عمليات الإعدام قياساً إلى عدد السكان. وإيران من الدول القليلة في العالم التي لا تزال تمارس إعدام القُصّر وضحايا الاغتصاب الجنسي من النساء في حال دفاعهن عن أنفسهن ضد مغتصبيهن. أما فيما يتعلق من أعدموا بسبب نشاطهم السياسي هم من الأكراد، ومن المسلمين السُنّة، ومن عرب الأهواز الذين تتراوح تهمهم بين التجسس والعمالة والإرهاب، ويخضعون عادة لمحاكمات سريعة لا تحقق أدنى معايير العدالة المتعارف عليها دولياً.

لقد أدت محاولات إيران المستمرة لزعزعة الاستقرار في منطقة الخليج العربي وإحكام نفسها في الخلاف الخليجي الأخير إلى إيجاد حالة من التوتر والتأهب، قد تنفجر في أي لحظة محدثة صراعاً عسكرياً مفتوحاً، لا شك أن المنطقة في غنى عنه. كما أدت تدخلات إيران إلى تأجيج نيران المشاعر الطائفية والعنف الطائفي في اليمن والعراق وسوريا ولبنان. وهنا ينبغي التنبيه على أن إيران كانت -ولا تزال- ممراً ومستقراً آمناً لكثير من قيادات تنظيم القاعدة وتنظيمات جهادية أخرى.

ولفهم هذه العلاقة المعقدة، لا بد من معرفة الأسس الفكرية التي يقوم عليها النظام الإيراني. إن طهران يحكمها نظام ثيوقراطي يتبنى تفسيراً متشدداً للمذهب الشيعي الاثني عشري، حيث يمزج بين مفهوم الحاكمية (أي سيادة الشريعة)، الذي يُعدّ مفهوماً أساسياً لدى جميع تنظيمات الإسلام السياسي السُنّة، ومفهوم الولي الفقيه، الذي هو مفهوم شيعي خالص يُشرعن للفقهاء السيطرة على السلطة لغرض تطبيق الشريعة. والغرض النهائي هو تعجيل عودة الإمام الغائب الذي يدعى أنه المخلص من الظلم الذي يعانیه الشيعة والبشرية والذي سيظهر آخر الزمان وسيحوّل غير الشيعة من المسلمين إلى المذهب الشيعي. وإلى حين ذلك فإنّ الفقيه - في هذه الحالة علي خامنئي - ينوب عنه.

هذا المزيج العقائدي بمنحى خلاصي مهم لفهم الكيفية التي تؤثر بها وتحشد من خلالها إيران المجتمعات الشيعية خارج حدودها. وقد تم بالفعل تأسيس عدداً من التنظيمات الجهادية الشيعية المتطرفة والعنيفة، نحو حزب الله، التي لديها طموح للتوسع الديني. وقد وُثق على تلك التنظيمات عديداً من المجازر والجرائم الطائفية في العراق وسوريا ولبنان. ولذلك، فإننا نعتقد أنه ينبغي للسياسيين والخبراء الغربيين إيلاء الدور الإيراني في دعم العنف والإرهاب ونشره إقليمياً ودولياً مزيداً من الاهتمام والتمحيص. والتركيز فقط على الجهاد السنّي سيؤدي حتماً؛ ليس إلى سياسات ومقاربات خاطئة فحسب؛ مما يؤدي بدوره إلى تحقيق نتائج عكسية كون هذا يغذي السخط ضد الغرب وسرديات المظلومية لدى أولئك السنة، كما شهدنا في العراق وسوريا، مما يقود -بدوره- إلى مزيد من الاحتقان الطائفي، وهكذا ندخل في حلقة مفرغة مستمرة من التطرف والتطرف المضاد.

(١) منظمة دولية تعنى بأبحاث ودراسات الحريات الدينية في العالم، مركزها في بريطانيا ولها مكاتب في واشنطن وبروكسل وجنيف وهونغ كونغ ونيجيريا. تُصدر المنظمة دراسات وتقارير حول القضايا المتعلقة بالحريات الدينية. تدافع المنظمة عن حق البشر بالحريّة الدينية دون تمييز، وهي في طليعة المنظمات الدولية التي عملت وما زالت على قضايا المسلمين الويغور والروهينجا، إضافة إلى مجموعات دينية أخرى. تُعد من المنظمات القليلة على مستوى العالم التي تدافع عن هذا الحق من دون تمييز أو تحيز لهذا الدين أو ذاك؛ ولذلك، فإنها تحظى بمصداقية عالية لدى الأوساط السياسية والأكاديمية الدولية، يمكنكم الاطلاع على رابط المنظمة: <https://www.csw.org.uk/home.htm>

في مقالة نشرها مؤخراً مصطفى أكيول -الباحث التركي في معهد همدسون- خلص فيها إلى أن النظام الإيراني الذي وصل إلى السلطة بطريقة عنيفة وحافظ عليها عن طريق العنف والقمع قد أخفق إخفاقاً ذريعاً في أسلمة المجتمع الإيراني. فالتوظيف المفرط للدين بغرض فرض برنامج سياسي على المجتمع أدى إلى ردود فعل تراوحت بين الاعتراض على التوظيف السياسي للدين وصولاً إلى رفض فكرة الدين نفسها. يؤكد ذلك ارتفاع معدلات التحول إلى الإلحاد أو إلى أديان أخرى في إيران.

في المقابل، وخلال العقد الماضي، يشهد العالم العربي مراجعات فكرية وسياسية وثقافية وتاريخية غير مسبقة. ويمكن ملاحظة بعض انعكاساتها السياسية والتشريعية في دول مختلفة، كالسعودية، ومصر، والسودان، وتونس، والجزائر. ولا زال طريق الإصلاح في العالم العربي طويلاً، إلا أن هذه المحاولات تبعث الأمل في الوصول إلى عالم عربي أفضل تسوده قيم العدالة والمساواة واحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية.

يجب ألا ينخدع السياسيون الغربيون بفصاحة وحنكة الدبلوماسية الإيرانية، ولا بدعاية جماعات الضغط والعلاقات العامة التي تمولها إيران. فالسلطة الحقيقة في إيران ليست في يد التكنوقراط الحكوميين، وإنما في أيدي مرشد الثورة والحلقة المتشددة المحيطة به التي تؤمن بأن المعركة مع الغرب هي معركة وجود، وأنها خطوة ضرورية في طريق الخلاص والجهاد الذي تسير عليه الثورة الإسلامية لاحتلال العالم والهيمنة عليه. إنَّ على المجتمع الدولي المثابرة في توظيف كل الوسائل المشروعة للضغط على النظام الإيراني لتغيير سلوكه. على الغرب الاستمرار في دعم الجهود الإيرانية التي تسعى لتحقيق تحوّل ديمقراطي داخل إيران. ونأمل أن تشهد إيران قريباً بيرسترويكا خاصة بها، شبيهة بتلك التي قادت إلى سقوط الأيديولوجية السوفيتية وهزيمة الشيوعية.